من أدلَّة تفضيل العربيَّة في القرآن

حسن بن غرم العمري

المحاضر في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى

- من مواليد عام ١٤٠١هـ بمدينة النماص.
- تخرج في كليَّة اللغة العربية في جامعة الملك خالد عام ١٤٢٤هـ.
- نال شهادة الماجستير في النحو والصرف من جامعة أم القرى عام ١٤٣١هـ بأطروحته: "**بناء المسائل النحويَّة بعضها على بعض في كتاب (همع الهوامع) للسيوطي** ".
- يحضِّر لدرجة الدكتوراه في النحو والصرف بجامعة أم القرى.
- البريد الشَّبكيّ : hgalamri@gmail.com

الملخص

العنوان: من أدلة تفضيل العربيَّة في القرآن.

يدور جدل من قديم حول كون العربية أفضل اللغات، ولا يزال هذا الجدل مستمرًّا إلى يومنا هذا، فالناس في هذا على ضربين: مدَّعٍ تفوُّقها بحجة أن الله اختارها لكتابه الكريم، ورافض لهذا الادِّعاء.

ومن هنا جاء هذا البحث لينظر في القرآن الكريم ويتأمل بعض آياته، مثبتًا تفوُّق العربية، وتميُّزها على بقية اللغات من خلال أدلة عقلية مستنبطة من القرآن الكريم، دون الدخول في هذا الجدل، أو استدعاء منطلقات الفريقين، أو مناقشة الأقوال ومنازعها.

وحَرَص البحث على أن تكون الأدلة المثبِتة لفضل العربية من القرآن وحده، تأكيدًا لهذا التفوق، وإمعانًا في إثبات هذا المعنى، وتقريره.

وقد توصل البحث إلى ثمانية أدلة تثبت للعربية الفضل، وهي على النحو التالي:

الدليل الأول: اختيار الأفضل في جنسه لإنزال القرآن.

الدليل الثاني: احتفاء القرآن بعربيَّته.

الدليل الثالث: عموم رسالة النبي ﷺ للثقلين.

الدليل الرابع: الثناء على القرآن.

الدليل الخامس: تحدي القرآن للثقلين.

الدليل السادس: نفي العجمة عن القرآن مع وصفه بالبيان.

الدليل السابع: تفصيل القرآن.

الدليل الثامن: تيسير القرآن.

وقُدِّم لهذه الأدلة بمقدِّمة وأُتبعتْ بخاتمة، وذيِّلتْ بفهرسين للمصادر والموضوعات.

أسأل الله أن ينفع به، وصلى الله على نبيِّنا محمد وآله وصحبه.

المقدمة

الحمد لله وحده، وصلى الله وسلَّم على من لا نبي بعده، أما بعد:

فقد حظِيَت اللغة العربية بمزيَّة جليلة، تتمثَّل في اصطفاءِ الله لها من بين سائر اللغات لتكون وعاء كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، واختيارِ خاتم الرسل ﷺ عربيًّا مبينًا، فارتبطت العربية بهذا الحبل المتين.

ولأجل تخصيصها بهذه المَهمَّة الجليلة استقر في يقين كثير من المسلمين تفضيلُها على غيرها من اللغات، وغدا هذا اعتقادًا عندهم، وهو ما صرَّح به أكثر أهل العلم، لغويين وغيرهم، متقدمين ومحدثين(١)، ولعله من أقوى أسباب استنهاض همة جمع من غير العرب ليكونوا من علماء هذه اللغة، ومن المنظِّرين المبرِّزين لها، بعد أن شغفوا بها، واستوقفتهم خصائصها، وأسرار صناعتها، يقول ابن جنِّي: «إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة؛ وجدت فيها من الحكمة والدِّقَّة، والإرهاف والرِّقَّة ما يملك عليَّ جانب الفكر، حتى يكادَ يطمح به أمام غلوة السحر»(٢).

غير أن هذا الاعتقاد لقي منازعة عند بعضهم، فأنكر أن تكون لغةٌ أفضلَ من لغة، يقول الإمام ابن حزم: «...وقد قال قوم: العربية أفضل اللغات؛ لأنه بها نزل كلام الله تعالى، قال عليٌّ: وهذا لا معنى له؛ لأن الله ﷻ قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولًا إلا بلسان قومه، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، وقال تعالى:

---

(١) هذا التفضيل للعربية بهذا الاعتبار مستفيض، سواء في كتب التفسير، أم في مقدمات بعض الكتب التي تناولت العربية وقضاياها، أم فيما عُقد من أبواب وفصول لهذا المعنى بعينه، أم في أبحاث منشورة في بعض المجلات، أم في غير ذلك.

(٢) الخصائص ١/ ٤٨، والغلوة: الغاية في سباق الخيل، والمعنى: أن جمال هذه اللغة يدنيه من غاية السحر.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فبكل لغة قد نزل كلام الله تعالى ووحيه، وقد أنزل التوراة، والإنجيل، والزبور، وكلَّم موسى عليه السلام بالعبرانية، وأنزل الصحف على إبراهيم عليه السلام بالسريانية، فتساوت اللغات في هذا تساويًا واحدًا، وأما لغة أهل الجنة وأهل النار فلا علم عندنا إلا ما جاء في النص والإجماع، ولا نص ولا إجماع في ذلك»[1].

ثم إن بعض المحدثين المتخصصين في علم اللغة، ذهبوا هذا المذهب، فقالوا بألا مزيةَ للغةٍ على أخرى، حتى العربية، وبنوا رأيهم هذا على مبدأ من مبادئ علم اللغة الحديث، ينكر التفاضل بين اللغات، وهو مبدأ أنتجته الدراسات اللغوية الغربية، ثم شاعت هذه الفكرة، وكثر القائلون بها، وقد رأيت مقالاتٍ عدةً وصفحات متعددة في الشبكة العنكبوتية يتحدث فيها أبناء العربية عن أنه لا فضل لعربيتهم على غيرها، وأنها كسائر لغات العالم، بل ربما اشتطَّ بعضهم ففضَّل غيرها عليها، فهل كان من حقِّ العربية على أبنائها وأهل القرآن الذي نزل بها أن يتلقَّوا هذا المبدأ بألسنتهم، فيشيعوه في دراساتهم ومحاضراتهم، ويعلموه أبناء جيلهم، دون أن يختبروا صحته؟ أمِنَ السهل التخلِّي عن هذا الاصطفاء الذي خصَّ الله به لغتهم لأجل مبدأ نظريٍّ لم يُبَرهَن عليه، رغم الثناءات الكثيرة جدًّا على العربية من قِبَل المستشرقين الذين عرفوا مكانتها بلهَ علماءَ العربية؟!

لست في هذا البحث معنيًّا بمناقشة هذا المبدأ ومُعتمَده، كما أنني لست معنيًّا بمناقشة ابن حزم فيما قال، ولا بإيراد أقوال العلماء ونصوصهم حول فضل العربية، ولا بعرض أدلة أيٍّ من الفريقين، مثبتي فضل العربية، ونفاته، ولا بنقل نصوص المستشرقين المثنين على العربية بما هي أهله.

غير أنني تأمَّلت آيات الكتاب العزيز، وربطت بعضها ببعض، واستنبطت منها

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/ ٣٤.

أدلة أرى أنها تثبت تفوُّق العربية على غيرها، وتشهد بفضلها على ما سواها، ولم أعتمد في هذه الأدلة على غير القرآن الكريم؛ ليكون ذلك أقطع في الدلالة، وأقوى في الحجة، وقد وجدت من العلماء من ذكر بعض هذه الأدلة أو أشار إليها كما سيتَّضح أثناء البحث.

ومن هنا فإن هدف هذا البحث هو: إثبات فضل العربية، وتفوُّقِها من خلال النظر العقلي في آيات القرآن الكريم، وقد اجتمع لي ثمانية أدلة، على النحو التالي:

الدليل الأول: اختيار الأفضل في جنسه لإنزال القرآن.

الدليل الثاني: احتفاء القرآن بعربيَّته.

الدليل الثالث: عموم رسالة النبي ﷺ للثقلين.

الدليل الرابع: الثناء على القرآن.

الدليل الخامس: تحدي القرآن للثقلين.

الدليل السادس: نفي العجمة عن القرآن مع وصفه بالبيان.

الدليل السابع: تفصيل القرآن.

الدليل الثامن: تيسير القرآن.

وفيما يلي عرض هذه الأدلة، وبيان وجه دلالتها، والله الموفِّق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله على نبيِّنا محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

الدليل الأول: اختيار الأفضل في جنسه لإنزال القرآن

اختار الله ﷻ جبريل عليه السلام من بين الملائكة لـمَهمَّة الوحي والنزول بالقرآن من السماء إلى الأرض، فقال: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل:١٠٢] ، وقد أثنى الله ﷻ على جبريل في القرآن الكريم في آيات متعددة، وذكره في معرِض الثناء عليه بما يؤكِّد عظمة هذا الملَك وفضلَه، فقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة:٩٧] ، وخصَّه وميكائيلَ بالذِّكر بعد التعميم بذكر الملائكة، فقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٩٨]، ووصفه بالأمانة في تحمُّلِه الوحيَ ونزوله به، فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] ، وأكَّد ذلك مع صفات أخرى تدل على شرفه، وعلو منزلته، ورفعة مكانته عند خالقه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير].

واختار -سبحانه- لهذا القرآن من بين البشر عامة والأنبياء خاصة رسوله محمَّدًا ﷺ النبي الأكرم، والرسول الأعظم، ليوحي إليه به، فيبلِّغه الناس، وليكون مؤيَّدًا له في رسالته، فخصَّه به معجزةً من بين سائر النبيين، وقد أخبر الله عن نبيِّه المصطفى بما يفضِّله على غيره، ويرفع مكانته، ويعلي منزلته، فخصَّه بفضائل لم يؤتِها نبيًّا قبله، وأثنى عليه ثناءً كثيرًا، في آيات كثيرة(١)، وورد من الأحاديث الصحيحة ما يدل على فضله على سائر البشر في الدنيا والآخرة(٢).

---

(١) ينظر -مثلًا- مطلعُ سورتي النجم، والقلم، وسورُ الضحى، والشرح، والكوثر، وغيرها، كما أن الله أضاف نبيَّه إلى نفسه إضافة تشريف بلفظ (عبده) في خمسة مواضع...

(٢) منها أحاديث الخصوصية له، التي تدل على أنه أعطي ما لم يعط نبيٌّ قبله، ومنها ما يدل على أنه أول من يبعث، وأنه صاحب الشفاعة، والحوض، والمنزلة الوحيدة في الجنة، وأنه سيد الناس=

واختار من بين الأمم أمَّة الإسلام، فخصّها بحمل هذا القرآن، وأكرمها به، وقد نصَّ على خيريَّتها بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠].

واختار خير الزمان لإنزال القرآن، فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:١٨٥] ، بل اختار له أكرم ليلة وأعظمها، فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر].

«ولا ريب أننا إذا أخذنا في الاعتبار وجود لغات عدة وقت التنزيل بدا لنا فضل العربية وشرفها على سائر اللغات، وتكريم الله باختيارها لغةً لكتابه الأخير»(١).

وبالنظر إلى هذا الاختيار والاصطفاء من الله تعالى لما هو أكرم وأفضل في جنسه مما سبق ليقترن بكلامه الكريم، يكون الاستدلال به على فضل العربية من وجهين:

الأول: أن العربية ألصق بالقرآن من أي شيء آخر، فإنها الملازمة له منذ التكلم به إلى أن يُرفَع، بل هي جزء منه، ومكوِّن من مكوِّناته، وليست شيئًا منفصلًا عنه كما هو حال غيرها مما ذُكر، فالكلام لا يكون إلا بلغة، وإذا كان الله عز وجل قد اختار جبريل عليه السلام الأفضل في جنس الملائكة لإنزال القرآن، واختار محمدًا صلى الله عليه وسلم الأفضل في جنس البشر لتبليغه، واختار أمته الفضلى في جنس الأمم لحمله، واختار شهر رمضان وليلة القدر الأفضلين في جنس الزمان لنزوله فإن كون العربية أفضلَ في جنس اللغات من باب أولى؛ لأن إنزال القرآن وتبليغه قد انقضيا، لكن ارتباطه بلغته مستمرٌّ لا ينقضي، فاختيار الأفضل لما هو جزء من القرآن ملازم له مستمر معه لا ينفك عنه أولى من اختيار الأفضل مما هو منفصل من القرآن، مستقل عنه.

الثاني: أن الله تعالى ذكر تنزيل هذا القرآن باللسان العربي في سياق ذكره لمن هو

= يوم القيامة.

(١) الفصحى لغة القرآن لأنور الجندي ص٣١.

أفضل في جنسه تعظيمًا لهذا القرآن، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء]، فلو لم يكن اللسان العربي أفضل الألسنة ما كان في ذكره مزيد تعظيم، وكان يكفي ذكر من نزل به، ومن نزل عليه، فلما ذكر جبريل عليه السلام وهو الأفضل في جنس الملائكة وذكر النبي ﷺ بل خصَّ قلبَه وهو الأفضل في جنس الأعضاء(١)، وذكر في هذا السياق اللغة التي نزل بها دلَّ على فضلها على جنسها، كما فَضُل النازل به والنازل عليه على جنسيهما.

وقد يُستشكل على هذا الاستدلال بكون جبريل عليه السلام هو الموكَّل بالنزول بالوحي عامةً، فليست مَهَمَّته مقصورة على النزول بالقرآن، وإذا كان كذلك لم يكن في ذكره دليل على فضل العربية، لنزول غير القرآن بغيرها، والجواب عن هذا: أنه ليس المقصود الاستدلال بهذا على قصر مَهَمة جبريل على النزول بالقرآن دون غيره من الكتب، إذ ليس الأمر كذلك، وإنما المقصود تقرير كون جبريلَ الموكَّلِ بالوحي هو الأفضلَ في جنسه، ثم ضم هذا المعنى إلى تفضيل غيره مما له صلة بالقرآن على جنسه، فتفضيل جبريل على جنسه مقرون بتفضيل النبي محمد ﷺ وأمته والزمان الذي نزل فيه القرآن على أجناسهم، ويكون مجموع ذلك هو الدليلَ على فضل العربية بالنظر إلى جنسها.

---

(١) «...ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صَلَحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» صحيح البخاري ١/ ٢٠ (الحديث ٥٢).

الدليل الثاني: احتفاء القرآن بعربيَّته

اشتمل القرآن على عدد كبير من الآيات في معرِض الثناء عليه، وبيان أوجه فضله، وصفات تميُّزه، والناظر في تلك الآيات يجد أنها جعلت من معايير عظمته ومقاييس رفعته أن كان عربيًّا، فالله جل جلاله «أخبر أنه أنزله عربيًّا في سياق التمدّح والثناء على الكتاب بأنه مبين لم يتضمن لبسًا، عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وذلك يدل دلالة ظاهرة على شرف اللغة التي أُنزل عليها» (١).

ومع أن الاستدلال على فضل العربية وعِظَم مكانتها باختيار القرآن لها لتكون لغته بيِّنٌ جليٌّ، إلا أن احتفاءه بعربيته أعظم دلالةً وأبلغ في تفضيل العربية على غيرها، إذ جُعِلتْ أساسًا من أسس عظمته هو، وامتدح بكونه عربيًّا، وأُكِّد هذا المعنى بنفي غير العربية من الألسنة الأعجمية عنه.

ففي قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف]، وصف -سبحانه- هذا الكتاب بـ(المبين)، كما جعل من أوصافه كونه (عربيًّا)، ويقول: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصّلت]، فامتدحه بكونه منزَّلًا من عنده، وبكونه مفصّلًا، وبكونه قرآنًا عربيًّا، ومعلوم أن هذا القرآن ليس خاصًّا بالعرب بل أنزل للناس جميعًا، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًّا، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل٤٤]، وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] ، وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:٧] ، فوصْفُه بالعربية جانب من جوانب عظمته، وهكذا يتكرر

(١) الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية لنجم الدين الطوفي ص٢٣٦.

هذا المعنى في عدد من الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:٣٧]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ [طه:١١٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف:١٢]، ذكر التوراة والقرآن ووصف كلًّا بما تميَّز به، فكان من أوصاف القرآن التي يُمتدَح بها أنه بلسان عربي، وخُصَّ بهذا الوصف مع الوصف بالتصديق من بين أوصاف كثيرة جليلة للقرآن!

ويقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء]، وهذا الموضع -خاصةً- يَظهر فيه معنى احتفاءِ القرآن بعربيته جليًّا، فإن الله تعالى لما أراد بيان عظمة هذا القرآن ذكر من الصفات ما يقرِّر هذا المعنى ويؤكِّده، فأخبر أنه هو بنفسه تولَّى تنزيله، واختار الروح الأمين من بين الملائكة لينزل به، واختار النبي محمدًا ﷺ من بين الأنبياء لينذر به، واختار اللسان العربي ليتكلم به، ثم زاد على ذلك بوصف اللسان العربي بالبيان.

وقد يُظَن أن هذا الاستدلال بآيات سورة الشعراء -خاصة- على تفوُّق العربية هو الدليل السابق نفسه، ولكن الأمر ليس كذلك، إذ لا يلزم من تكرار الدليل الواحد تكرار وجه الاستدلال به، والفرق بين الاستدلالين بهذا الدليل على تفوُّق العربية: أن الأول يراد منه الاستدلال على تفضيل العربية على جنسها بذكر هذا اللسان العربي في سياق مَن ذكره الله وهو مفضَّل على جنسه، وأما هذا الدليل

فالمراد منه الاستدلال على تفضيل العربية بما ذكره الله من معايير تعظيم هذا القرآن، وهي: كونه من عند الله، وكون من تولّى النزول به هو جبريل، وكون من تولَّى النذارة به هو محمدًا ﷺ ، وكون اللغة التي نزل بها هي اللغة العربية، وإلا يكن ذلك فلا فائدة من ذكر هذا اللسان العربي ووصفه بالمبين في معرِض تعظيم هذا القرآن.

وهذا الدليل مرتَّب على الدليل السابق؛ لأنه إذا ثبت كون اللسان العربي خير الألسنة - في الدليل السابق- فإنه يكون من مقاييس عظمة هذا القرآن في هذا الدليل.

كما أن هذا الدليل مؤكِّد للدليل السابق؛ لأنه إذا تبيَّن من هذه الآيات كون اللسان العربي من مقاييس عظمة القرآن الكريم تأكَّد أن ذكره في سياق المفضَّلَينِ على جنسيهما تفضيل له على جنسه.

فهذه الآيات الأخيرة تدل على أن القرآن عظيم بالنظر إلى كونه منزَّلًا من رب العالمين، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، ثم بالنظر إلى أمور أخرى، منها معيار منزلة جبريل بين الملائكة، ومعيار منزلة النبي محمد ﷺ بين الرسل، ومعيار منزلة اللسان العربي بين الألسنة.

يقول الرازي في تقرير هذا الدليل: «إنما وصف الله القرآن بكونه عربيًّا في معرض المدح والتعظيم وهذا المطلوب لا يتم إلا إذا ثبت أن لغة العرب أفضل اللغات»(١).

---

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ٢٧/ ٩٧.

الدليل الثالث: عموم رسالة النبي ﷺ للثقلين

من الأشياء التي خص الله بها النبي محمَّدًا ﷺ أن بعثه للناس كافَّة، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨] ، وكان كل نبيٍّ يبعث إلى قومه خاصَّة، وإذا كان الله ﷻ قد بعث كل رسول إلى قومه بلسانهم، فإنه بعث النبي محمَّدًا ﷺ إلى الإنس والجنِّ عامَّة بالعربية، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم:٤]، ويقول في مقابل ذلك: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى:٧]، ويقول: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم:١]، ويقول: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾ [الجنّ]، وآيات أخرى تدل على أن هذا القرآن بيان للناس أجمعين، مرَّ ذكر بعضها في الدليل السابق.

فجَعْلُ هذه اللغة أداة رسالة النبي محمدٍ ﷺ العامَّة، والكتابِ الذي أُنزِل معه على الإنس والجن كافَّة -وإن كانت العربية في أصلها خاصَّة بالعرب- مع اقتصار رسالة كل نبيٍّ غيره ولغته على قومه خاصة دليلٌ على تفضيل العربية على غيرها، لما يلزم على ذلك من كون كل لسان تابعًا للعربية، لا العكس، ومن استغناء العرب عن لغة غيرهم في عبادتهم لله التي ما خُلق الجن والإنس إلا لها، مع عدم استغناء غير العرب عن العربية، يقول الإمام الشافعي: «فإذا كانت الألسنة مختلفةً بما لا يفهمه بعضُهم عن بعض فلا بدَّ أن يكون بعضهم تبَعًا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتَّبَع على التابع... بل كلُّ لسان تَبَع للسانه (يعني النبي ﷺ)، وكل أهل دين قَبْله فعليهم اتِّباع دينه» [(١)].

فإنزال الله تعالى القرآن العظيم لعموم الثقلين، وإرسالُه النبي الكريم ﷺ

(١) الرسالة ص٤٦.

بالرسالة الخالدة وكلاهما باللغة العربية دليل على تفضيلها على غيرها من اللغات؛ لحملها الرسالة العامة لجميع المكلفين على اختلاف لغاتهم، وكون جميع الخلق تابعين في ألسنتهم لهذا اللسان.

الدليل الرابع: الثناء على القرآن

القرآن كلام الله، واللغة العربية أداة ذلك الكلام، ولا يُتَصوَّر انفصال العربية عن القرآن؛ لامتزاجها به، فقد أصبحت جزءًا منه، فإذا امتُدح القرآن بشيء فللعربية نصيب من ذلك المدح، ونجد مِصْداق ذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحِجر]، فالآية بيِّنة في تكفُّلِ الله ﷻ بحفظ القرآن، لكنَّ ذلك استلزم حفظ لغته، ولا يتحقَّق حفظه إلا بحفظها، ولذا كانت هي اللغة الوحيدة التي عاشت هذا التاريخ الطويل كله، فلا نجد لها نظيرًا، وما يوجد من لغات اليوم أقصر عمرًا بكثير من عمر العربية، وما نشأ مع العربية من لغات في أول أمرها لا وجودَ له اليوم، ولم يكن ذلك ليتحقق لولا حفظ الله لكتابه الذي أنزله بها.

والآيات التي امتُدِح بها القرآن كثيرة جدًّا، لكنني أقتصر على بعض ما يتضح معه الثناء على العربية استلزامًا؛ لكونها جزءًا منه.

يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣]، فهل قشعريرة جلود المؤمنين عند سماع أحسن الحديث -القرآن- إلا لما تصوروه وفهموه من ألفاظ هذه اللغة وما حملته من معان؟!

ويقول سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف:٣]، فأحسن القصص على الإطلاق هو قصص القرآن الموحى إلى أكرم الخلق باللغة العربية!

ويقول الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجنّ]، ويقول: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ

مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة]،ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء]، وفي هاتين الآيتين الأخيرتين وصف للقرآن بالإبانة، ولا شك أن لغته وسيلة ذلك على ما سيأتي تفصيله.

ويقول ﷻ : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١] ، ويلاحظ من هذه الآية مدى قوة تأثير القرآن حتى فيما لا روح له، وفي تقييد ذلك الأثر للجبل بكونه حاصلًا له لو نُزِّل عليه هذا القرآن بعينه ما يدل على خصوصيته، إذ لم يقل (لو أنزلنا قرآنًا)، ولغته جزء منه.

بل إن في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصّلت:٤٤] إشارةً إلى ارتباط تأثير القرآن بكونه عربيًّا، فإنه لما قابل العربي بالعجمي أخبر عن هذا القرآن الذي جُعل عربيًّا بتأثيره في الناس - جميعًا- فهو للمؤمنين هدى، وشفاء، ولغير المؤمنين عليهم عمى، وهذا التأثير للقرآن من المعاني التي تكرَّرت فيه، يقول تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]، ويقول: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة]، فهذا القرآن نفسُه هداية للمؤمنين وشفاءٌ لهم ويزيد في إيمانهم، وهو عذابٌ على الكافرين وزيادة في ضلالهم ونفورهم، ولغته وسيلة في تحقيق ذلك .

ومن أوضح الآيات التي تستلزم الثناء على العربية لثنائها على القرآن قول الله

تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة٤٨]، فإن كون هذا القرآن قد أعلى الله منزلته، وجعله مهيمنًا على كل كتاب قبله، وناسخًا له، وهو منزَّل باللسان العربي يقضي بأن يكون لهذا اللسان حظ ظاهر من ذلك الفضل، وتلك المنزلة.

ويدخل في هذا المعنى ما خُصَّ به القرآن من أسماء تدل على تعظيمه والثناء عليه، كتسميته بـ(الفرقان)، ونحوه.

والآيات الواردة في الثناء على القرآن كثيرة، وهو ثناء يستلزم الثناء على اللغة التي حملته، ومثال ذلك لو قيل لشاعر: شِعْرُك هذا من أجمل الشعر! لم يكن هذا المدح للشعر مقتصرًا على مدح نفس الشاعر التي أبدعته، وقدرتها على التصوير، ومراعاة الأحوال، وترتب المعاني في تلك النفس، بل إن اللغة التي استخدمها الشاعر ستنال حظها من المدح، وكما يقول ابن جني عن عناية العرب بألفاظ لغتها إمعانًا في العناية بمعانيها وحرصًا على الوصول إلى غاياتها: «فإنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقًا إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتَّبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة على القصد»[(١)]، فكذلك لما أريد للقرآن أن يحمل المعاني العظام اختير له اللغة القادرة على حمل رسالته، وكون هذا القرآن المثنى عليه الثناءُ العطر، الممدوح بصفات لا تكون في غيره حتى الكتبِ السماوية قد اختيرت له لغة العرب من بين سائر اللغات لينزل بها - دليلٌ على فضلها على غيرها، وتفضيلها على ما سواها؛ لحلولها منزلة لم تحلَّها لغة أخرى، وبلوغها درجة لا تتحقق لغيرها، من جهة ما يلزم على ثناء الله على القرآن من الثناء على لغته بما لا نظير له في اللغات الأخرى، بل لم يرد في الثناء

(١) الخصائص ١/ ٢١٦-٢١٧.

على غيرها شيء لا على سبيل الاستلزام ولا على سبيل غيرِه؛ فلاكتسابها من الثناء المستلزَم على ثناء الله على القرآن المنزَّل بها ما لم يحظ به فرد من أفراد جنسها؛ واكتسائها من مدح الله لكتابه العزيز الذي اختيرت له فأصبحت بألفاظها وتراكيبها ونحو ذلك من أحوالها جزءًا منه ما لا وجود له في غيرها – لأجل ذلك علت منزلتها؛ وجاوزت نظيراتها من اللغات.

أوَليس ثناء الله على كتابه المنزل بها وما استلزم من الثناء عليها تفضيلًا لها على غيرها مما لم يكن له شيء من ذلك؟

الدليل الخامس: تحدِّي القرآن للثقلين

تحدَّى الله ﷻ الخلق أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل بعضه، وعمَّ بالتحدي مَن دونه في أكثر من آية، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس]، وفي انقطاعهم عن معارضة التحدي دليل عجزهم، فـ«لولا أنهم حين سمعوا القرآن وحين تُحُدُّوا إلى معارضته سمعوا كلامًا لم يسمعوا قط مثله، وأنهم رازوا أنفسهم فأحسُّوا بالعجز عن أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه أو يقع قريبًا منه لكان محالًا أن يدعوا معارضته وقد تحدوا إليه، وقُرِّعوا فيه، وطولبوا به» [1]، وإذا كانوا عاجزين عن الإتيان بسورة من مثله فعجزهم عما هو أكثر من ذلك من باب أولى.

ومن ثَمَّ أخبر الله تعالى عن عجز الجن والإنس قاطبة -وليس العرب وحدهم- فقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

وفي كون هذا القرآن مهيمنًا على جميع الكتب قبله، وحجَّة على الثقلين كافَّةً، ومستمرًّا إلى قيام الساعة ثم يجيء التحدي مع ذلك كلِّه بالعربية خاصةً دليلٌ على تفوُّقها على سائر اللغات منذ بدء التحدي إلى أن يُرفع القرآن.

ويتأكَّد هذا المعنى بأن الكتب التي أنزلها الله ﷻ على أنبيائه قبل محمد ﷺ كلَّها من عند الله ثم لم تحمل هذا التحديَ الذي جاء به القرآن عربيًّا؛ يقول الباقلَّاني في معرض كلامه عن إعجاز القرآن: «وقد بيَّنا قبل هذا أنه لم يكن ذلك معجزًا لكونه عبارة عن الكلام القديم؛ لأن التوراة والإنجيل عبارة عن الكلام القديم، وليس

---

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني ص٣٨.

ذلك بمعجز في النظم والتأليف»[1]، بينما القرآن معجز في نظمه وتأليفه.

وإذا كان أوضح صور إعجاز القرآن هو الإعجازَ البياني وقد نزل متحديًّا أهل البيان في بيانهم ثم «لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حكَّ بيافوخه السماء موضع طمع، حتى خرِسَت الألسن عن أن تدَّعي وتقول، وخذِيَت القُروم فلم تملك أن تصول»[2] كان عجز غيرهم من باب أولى[3]، ومن ثم كان هذا دليلًا على فضل العربية التي كانت قادرة على أن يُفرض بها التحدي على الخلق أجمعين رغم اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم ولغاتهم.

(١) إعجاز القرآن ص٢٦٠، المقصود من إيراد هذا النص هو التنبيه على معنى: (أن القرآن العربي هو الكتاب الوحيد الذي نزل متحديًّا، مع أنه والتوراةَ والإنجيلَ ونحوَهما من الكتب السماوية من عند الله، لكنه لم يرد التحدي في غير القرآن العربي)، مع صرف النظر عن الأمر العقدي والجدل الكلامي في نص الباقلاني.

(٢) دلائل الإعجاز ص٣٩.

(٣) ينظر إعجاز القرآن ص٢٥٠.

الدليل السادس: نفي العجمة عن القرآن مع وصفه بالبيان

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

هذه الآية دالَّة على تميُّز اللسان العربي وتفوُّقه، وذلك أنه لما ردَّ الله ﷻ بالدليل العقلي على المشركين بأن الذي كانوا يزعمونه يعلِّم النبي ﷺ القرآن أعجميٌّ، في حين أن هذا القرآن عربي لم يقتصر الرَّدُّ على مجرد نفي العجمة عن القرآن، وتكذيبِ ما قاله المشركون، بل زاد على ذلك بوصف اللسان العربي بالإبانة دون اللسان الأعجمي، ولو كان المقصود نفي هذه الكِذْبة فحسب لكان يكفي أن يكون الكلام: (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي)، فيحصل بذلك الرد على زعمهم، فلما خُصَّ اللسان العربي بالبيان في مقابل اللسان الأعجمي دلَّ على فضل العربية، يقول ابن فارس في (باب القول في أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها)بعد أن أورد آيات سورة الشعراء-ومنها ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾-: «فوصَفَه جلَّ ثناؤه بأبلغ ما يوصف به الكلام، وهو البيان... فلمّا خصَّ جلّ ثناؤه اللسان العربي بالبيان عُلم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه» (١).

وإذا كان الله ﷻ قد امتدح القرآن الكريم بالإبانة في عدة مواضع، منها قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس]، وكانت الوسيلةُ لتحقيق تلك الإبانة -التي هي من صفات القرآن الظاهرة المترتبة على لغته- كونَه باللسان العربي كان ذلك دليلًا على فضله وتفوُّقِه، ولا سيَّما أن الله عز وجل وصف اللسان نفسه بأنه مبين.

ويتأكَّد هذا الفضل بتسمية القرآنِ اللسانَ العربي بالعربي، واللسانَ غير العربي

---

(١) الصاحبي ص ١٢.

بالأعجمي؛ لدلالة مادة (ع ر ب) على معنى الوضوح والإبانة والإفصاح[1]، ودلالة مادة (ع ج م) على ضد ذلك، يقول ابن جني: «ألا ترى أن تصريف (ع ج م) أين وقعت في كلامهم إنما هو للإبهام وضد البيان، من ذلك: العَجَم لأنهم لا يفصحون...ومنه (جرح العجماء جبار)؛ لأن البهيمة لا تفصح عما في نفسها...»[2]، فارتقى اللسان العربي عن غيره لإفصاحه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ بعد قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء] تأكيد على ما سبق في صدر هذا الدليل، من وصف اللسان العربي بالإبانة في مقابل عجمة غيره، كما أن فيه إشارةً إلى فضل العربية بالنظر إلى ذكره عدم إيمان المشركين بهذا القرآن مع كونه عربيًّا منزَّلًا على عربي، فإذا كانوا لم يؤمنوا به مع أنه خليق بالإيمان به لكونه باللسان العربي المبين وأنه ليس منزلًا على أعجمي فلَأَلَّا يؤمنوا به لو نزل على بعض الأعجمين من باب أولى.

❁ ❁ ❁

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٢٩٩.

(٢) الخصائص ٣/ ٧٧-٧٨.

الدليل السابع: تفصيل القرآن

من أوصاف القرآن الظاهرة المتكررة في الثناء عليه كونه مفصَّلًا، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف]، ويقول: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود]، ويقول: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:١١٤]، ويقول: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قُيِّد تحقيق صفة التفصيل للقرآن بكونه منزَّلًا بالعربية، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصّلت:٤٤]، فبيَّن -سبحانه- أنه لو أنزل القرآن بغير العربية لاعترضوا عليه بعدم تفصيله، فجعل صفة التفصيل مقابلة للعجمة، فدل امتناع تفصيل القرآن لوجود جعله أعجميًّا -لو كان كذلك- على أن حصول التفصيل الثابت لهذا القرآن متحقق عن طريق العربية، وهذا دليل تفوق لها على غيرها، ولو قيل مكان الآية: (ولو جعلناه قرآناً أعجميًّا لقالوا لولا جُعِل عربيًّا) لم يظهر منه تفضيل اللسان العربي، وإنما يكون مجرد اعتراض منهم على كونه بغير لسانهم، فلمَّا جعل اعتراضهم متَّجهًا إلى عدم تفصيله حين يكون أعجميًّا دل على أن تفصيله المتصف به مرتبط بكونه عربيًّا، يقول ابن قتيبة في تفسيره لهذه الآية : «أي: هلَّا فُصِّلتْ آياته، أي أُنزلتْ عربيَّةً مفصَّلة بالآي، كأنَّ التفصيل للسان العرب»(١).

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في مطلع السورة نفسها: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾، فقرن بين وصف آيات هذا الكتاب بالتفصيل والعربية.

(١) تفسير غريب القرآن ص٣٨٩-٣٩٠.

وقد يُعترَض على هذا الاستدلال بأن الله -تعالى- وصف التوراة بالتفصيل مع كونها بغير العربية، فقال: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٤]، وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥]، والجواب عن هذا: أن التفصيل المذكور في التوراة هو في وظيفة التوراة بتفصيلها كل شيء من الحلال والحرام، وما أمر الله به ونهى عنه[١]، وليس وصفًا للتوراة نفسها بأنها مفصَّلة بل هي مفصِّلة، وأما القرآن فهو نفسه مفصَّل.

كما أن ما ذكر من تفصيل التوراة لم يربط بلغتها، ولم يرتَّب عليها، وإنما جاء ذكر التفصيل مجردًا من علاقته باللغة، بينما وصف القرآن بالتفصيل جاء مرتَّبًا على كونه بالعربية.

ثم إن الاستدلال هنا إنما هو بالنظر إلى القرآن نفسه فيما لو اختلفت لغته؛ فنزل أعجميًّا، ومقارنتِه مع نزوله عربيًّا، فنزوله بالعربية حقق له صفة التفصيل، ولو نزل بغير العربية ما تحققت له تلك الصفة، وليس الاستدلال قائمًا على مقابلة القرآن بغيره من الكتب، فكونه أفضلها والمهيمن عليها ثابت من أدلة أخرى، كما أن الكلام ليس على وجود التفصيل في التوراة، فكون هذا الصفة قد تحققت للتوراة -لو تحققت- وهي بغير العربية لا يشكل على الاستدلال بها في القرآن، فالتوراة شيء، والقرآن شيء، وليس يلزم من كون كلٍّ منهما مفصَّلًا -لو قيل إن التوراة مفصَّلة- أن مستوى التفصيل فيهما واحد، كما أن تحقق ذلك للتوراة بغير العربية لا يلزم منه تحققه للقرآن بغيرها.

---

(١) ينظر تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) ١٣/ ١٠٦، ١٠٧.

وبهذا يُعلم أن الاستدلال هو بالنظر إلى مقارنة القرآن بلغته التي نزل بها به لو نزل بغيرها.

الدليل الثامن: تيسير القرآن

يسَّر الله تعالى القرآن، وأكَّد هذا المعنى مرارًا، فقال في عدة آيات من سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

ومن المتقرِّر أن الله تعالى أنزل هذا القرآن للناس أجمعين، وليس مقصورًا على العرب، وقد مرَّ عدد من الآيات الدالة على هذا المعنى(١)، ومع ذلك كان من وسائل تيسيره للناس أن نزل بالعربية، وهذا ما يدل عليه القصر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان].

والاستدلال بهذا القصر على تفوُّق العربية يحتمل وجهين:

الأول: أن يكون تيسير القرآن محصورًا في لسان النبي العربي ﷺ، فيكون المعنى في الآيتين بعد ثبوت وصف التيسير للقرآن: (وما يسرناه إلا بلسانك)، أي لم يتحقَّق هذا التيسير إلا لكونه عربيًّا، ثم بيَّن علة التيسير، وهي البشارة والنذارة والتذكير، فينحصر هذا التيسير لهذه الأسباب في اللسان العربي، دون غيره؛ اصطفاءً له من بين سائر الألسنة، يقول ابن كثير: «أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلًا واضحًا بيِّنًا جليًّا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها»(٢).

الثاني: أن يكون تيسير القرآن باللسان العربي محصورًا في التعليل المذكور، من البشارة والنذارة والتذكير، فيكون المعنى: (وما يسرناه بلسانك إلا لتبشر به المتقين -عمومًا- وتنذرهم، ولتذكيرهم)، فينحصر نزول القرآن باللسان العربي في هذه

(١) ينظر دليلا (احتفاء القرآن بعربيَّته) و(عموم رسالة النبي ﷺ للثقلين).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٢٦٣.

الأسباب، وعليه يكون المعنى أن غيره من الألسنة غير قادر على القيام بهذه المهمة، وتحقيق البشارة والنذارة والتذكير.

وعلى أيِّ المعنيين فالدليل على تفضيل اللسان العربي قائم.

❁ ❁ ❁

الخاتمة

وبعد، فما عرضته في هذا البحث الموجز هو محاولة لربط الآيات الواردة فيه بعضها ببعض، وفهمِ دلالاتها فيما يتَّصل بمنزلة العربية، وتفوّقِها على قريناتها من اللغات، الأمر الذي أهَّلها لتكون لغة الوحي المعجز ببيانه.

ويمكن تلخيص ما سبق عرضه في البحث وما توصل إليه من نتائج فيما يلي:

- أن اختيار الله عز وجل لغةَ العرب لتكون لغة القرآن الكريم دليل على تفوّق هذه اللغة على غيرها من اللغات، من جهة أن الله تعالى قرن كون هذا القرآن منزَّلًا باللسان العربي بكونه اختار لهذا القرآن ما هو أفضل في جنسه ليقترن به، كاختيار جبريل عليه السلام من بين الملائكة للنزول به، واختيار خاتم الرسل محمد ﷺ من بين البشر لتبليغه، واختيار أمة الإسلام من بين الأمم لحمله، واختيار شهر رمضان من بين الشهور، وليلة القدر من بين الليالي زمانًا لنزوله.
- أن امتداحَ القرآن بكون العربية لغتَه، والثناءَ عليه لكونه نزل بها دليل على فضلها على غيرها.
- أن كون رسالة النبي محمد ﷺ جاءت لعموم الثقلين باللغة العربية مع اختلاف لغاتهم دليل على فضلها.
- أن الثناء على القرآن وخاصة فيما كان للغته أثر فيه يستلزم الثناء على تلك اللغة، في حين أنه لم يُثنَ على غيرها من اللغات، وفي هذا تفضيل لها على غيرها.
- أن كون القرآن العربي جاء متحدّيًا للثقلين كافة إلى قيام الساعة على اختلاف لغاتهم دليل على فضل لغته العربية على كافة اللغات، إذ كانت هي الحاملة لذلك التحدي.

- أن نفي العجمة عن القرآن والتصريحَ بكونه نزل باللسان العربي ثم تخصيص هذا اللسان بوصف البيان دليل على تفوُّقِ العربية.
- أن ترتيب صفة التفصيل التي امتُدح بها القرآن في غير موضع منه على كونه منزّلًا باللغة العربية دليل على فضل تلك اللغة.
- أن قصر صفة التيسير التي وُصف بها القرآن على كونه منزَّلًا بلغة النبي محمد ﷺ العربية دليل على فضلها على غيرها.

وأستطيع بعد هذه الأدلة التي أوردها البحث أن أطمئنَّ إلى تفضيل العربية، وإن صرَّح بعض العلماء بخلاف ذلك، وأن أجزم بأن المبدأ الذي ينكر تفاضل اللغات لا يتناول العربية، ولا يأتي عليها، مع صرف النظر عن مدى صحته فيما يخص اللغات الأخرى.

وأن الأدلة المذكورة كافيةٌ -حسب ظني- لإزالة شك من لا يزال يشك في تفوِّق لغة القرآن على غيرها، وحاملةٌ له على أن يعتقد فضلها؛ فإن هذه الأدلة -كما تبيَّن أثناء عرضها- ليست مجرد إشارات نادرة، أو لمحات عابرة، بل هي معانٍ واضحةٌ جلية قرَّرها القرآن الكريم غير مرة، وتضافرت الآيات في التأكيد عليها، وقد حرَصت على ذكر قدرٍ وافر منها إثباتًا لهذا المعنى، وترسيخًا له.

فالله أسأل أن يبارك لنا في القرآن العظيم، ويعلمنا منه ما جهلنا، وصلى الله على نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

١. **الإحكام في أصول الأحكام** لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، المتوفى سنة ٤٥٦هـ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٢. **إعجاز القرآن** لأبي بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣هـ، تحقيق السيد أحمد صقر، طبعة دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة ١٩٩٧م.

٣. **تفسير غريب القرآن** لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المتوفى سنة ٢٧٦هـ، تحقيق السيِّد أحمد صقر، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨هـ.

٤. **تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير، ومفاتيح الغيب**، للإمام محمد الرازي فخر الدين، المتوفى سنة ٦٠٦هـ، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٥. **تفسير القرآن العظيم** لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المتوفى ٧٧٤هـ، تحقيق سامي محمد سلامة، طبعة دار طيبة، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٦. **جامع البيان في تأويل القرآن** لمحمد بن جرير الطبري، المتوفى ٣١٠هـ، تحقيق أحمد محمد شاكر، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٧. **الجامع الصحيح** للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المتوفى ٢٥٦هـ ، اعتنى به محمد زهير بن ناصر الناصر، طبعة دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٨. **الخصائص** لأبي الفتح عثمان بن جني، المتوفى سنة ٣٩٢ هـ ، تحقيق محمد علي النجار، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة ١٩٩٩م.

٩. **دلائل الإعجاز** لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ أو ٤٧٤هـ ، تحقيق محمود محمد شاكر، طبعة مطبعة المدني، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

١٠. **الرسالة** للإمام المطَّلِبي محمد بن إدريس الشافعي، المتوفَّى سنة ٢٠٤هـ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

١١. **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**، تصنيف أحمد بن فارس، عنيت بتصحيحه ونشره المكتبة السلفية، ١٣٢٨هـ، ١٩١٠م

١٢. **الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية** لأبي الربيع نجم الدين سليمان بن عبد القوي الطوفي، المتوفى سنة ٧١٦هـ، تحقيق الدكتور محمد خالد الفاضل، طبعة مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م

١٣. **الفصحى لغة القرآن** لأنور الجندي، طبعة دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م

١٤. **معجم مقاييس اللغة** لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المتوفى ٣٩٥هـ، بتحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، طبعة دار الفكر.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
الملخص	٢٧٣
المقدمة	٢٧٤
الدليل الأول: اختيار الأفضل في جنسه لإنزال القرآن	٢٧٧
الدليل الثاني: احتفاء القرآن بعربيَّته	٢٨٠
الدليل الثالث: عموم رسالة النبي ﷺ للثقلين	٢٨٣
الدليل الرابع: الثناء على القرآن	٢٨٥
الدليل الخامس: تحدِّي القرآن للثقلين	٢٨٩
الدليل السادس: نفي العجمة عن القرآن مع وصفه بالبيان	٢٩١
الدليل السابع: تفصيل القرآن	٢٩٣
الدليل الثامن: تيسير القرآن	٢٩٦
الخاتمة	٢٩٨
فهرس المصادر والمراجع	٣٠٠
فهرس الموضوعات	٣٠٢